

المكوّن البلاغي في البحث اللساني الحديث

الدكتور: محمد كمال بلخوان

المدرسة العليا للأستاذة مستغانم

kkamel5@hotmail.com

الملخص:

يسعى هذا المقال إلى البحث في كيفية استثمار الفكر اللساني الحديث لإمكانيات البلاغة القديمة، سواء بالنسبة للسانيات الغربية وعلاقتها بالبلاغة اليونانية أو اللسانيات العربية وعلاقتها بالتراث البلاغي العربي القديم، وقد تجلت ملامح الاستحضار بداية في الاتجاه الذي سلكته مدرسة جنيف اللسانية مع رائدها " شارل بالي " وكيف استثمر فكر أستاذه سوسير من جهة، واستحضر البلاغة القديمة من جهة ثانية لبناء ما عرف في اللسانيات بالأسلوبية التعبيرية. وتعرضنا في الجزء الثاني من هذا المقال لما عرف بلسانيات النصّ وحاولنا الوقوف عند إجراءات البلاغة القديمة وكيف استثمرت في بناء النص لسانيا.

الكلمات المفتاحية:

البلاغة القديمة، اللسانيات الغربية والعربية ، الأسلوبية، علم النصّ.

Résumé:

Dans cet article, nous allons élaborer les aspects de la rhétorique classique dans les linguistiques occidentale et arabe contemporaines.

Nous commencerons par l'effet des concepts de linguistique Saussurienne et recherches rhétorique grec dans les différentes écoles, Ecole de Genève qui a élaboré ses recherches dans la stylistique; ainsi que les mêmes aspects dans la linguistique textuelle relative à la structure des textes. Et effet de linguistique occidentale sur la linguistique Arabe contemporaine.

Mots clé:

Rethorique- Linguistique- Stylistique. linguistique textuelle.

مقدمة:

حظيت اللغة منذ زمن غير قريب بالاهتمام والدراسة من اللغويين والفلاسفة على السواء، وفي مختلف المحطات الحضارية التي عرفتھا الإنسانية في سيرورتھا التطورية؛ استتطقوا أصواتھا ونحوھا وبلاغتھا ودلالة ألفاظھا، ومع انقضاء القرون وبروز حضارات جديدة واندثار أخرى تراكمت في قاع الفكر اللغوي الإنساني جهود متنوعة بتنوع الحضارات حول طبيعة اللغة؛ حتى شهد القرن التاسع عشر تحولا منهجيا بارزا في تناول الظاهرة اللسانية مع سوسير، وما فتئ يتطور البحث اللغوي ويكتسح مختلف الميادين العلمية الموازية دون إهمال لذلك التراكم المعرفي التي عرفتھا الحضارات السابقة، بل راحت مختلف الاتجاهات اللسانية تستحضر وتستثمر ذلك التراكم وتعيد صياغته صياغة تتلاءم ومنهج تناول الظاهرة اللسانية.

إنَّ أيَّ علم يتَّخذ جانبا من جوانب اللغة البشرية موضوعا له، فإنه يفتح بذلك حدوده المنهجية والمعرفية على علوم أخرى وتنشأ بينهما وشائج وعلاقات تُملِئها عادة الضرورة المنهجية، فحين أزلت اللسانيات اللثام عن موضوعها ومنهجها هيأت لنفسها قابلية إقامة علاقات معرفية مع علوم أخرى تعددت وتنوّعت بحسب امتداد التفكير اللساني وتوسّعه، يقول عبد السلام المسدي: ((أما المسوّغ الثاني الذي أعطى البحث اللغوي القدرة على الامتداد الشامل فهو أنَّ علم اللسانيات منذ أن اكتشف وقوع اللغة في مفترق المسالك العلمية المتعدّدة، والمتباينة أحيانا في مجال انتمائها، عمل على إرساء مبدأ التضايف بين العلوم وترسيخ سنن التكامل بين الاختصاصات المختلفة.))¹.

وإذا كنا نبحث في هذا المقام في المكوّن البلاغي في البحث اللساني الحديث؛ فإننا بحكم المسار المعرفي والمنهجي للبحث نقف عند البلاغة العربية في ضوء سياقها الحضاري العربي وتضافرها المعرفي مع العلوم اللغوية المختلفة، ثم نعرّج نحو الانجازات التي حقّقتها اللسانيات إن على مستوى التنظير أو الإجراء، وكيف استطاعت نسج شبكة من العلاقات تجاوزت بها حدود المعرفة في العلوم الإنسانية إلى العلوم التطبيقية، ثم كيف استثمر البحث اللساني الغربي أو العربي على السواء الإجراءات البلاغية القديمة في إعادة هيكلة البحث اللساني الحديث التي ما فتئ تجدد في كل حين.

البلاغة العربية وتضافر العلوم:

بدأ المسار الطبيعي للبلاغة العربية من المنظور الحضاري بالنقد التطبيقي قبل مرحلة التأسيس النظري والعلمي، والتي تميّزت إذ ذاك بجملة من الخصائص نوجزها في الاحتكام إلى ذات ناقدة ورصد للخلل الفني أو المعرفي وأخيرا المفاضلة أو التفسير، وما فتئ يمتدّ هذا التّوجه حتى ظهر في القرن الثالث الهجري في شكل موازنات وخصومات يقول الدكتور محمد العمري: ((وقد ارتبط هذا النقد التطبيقي بالمفاضلات والموازنات بين الشعراء وأنصارهم. وصلت هذه الخصومات درجة الاصطفاف المذهبي بين القدماء والمحدثين في القرن الثالث الهجري فبدأت تظهر لوائح بألفاظ تصف فعالية الشعر. في شكل كتب سميت بديعا ثم بديعيات))². وهو مذهب يراه محمد العمري عربيا صرفا انطلق من البيئة المعرفية العربية قوامه الوصف والملاحظة والتسمية والتمثيل.

أمّا علاقة البلاغة بعلم النحو؛ فقد تمّ رصد الظواهر البلاغية في نسق المعرفة النحوية بداية في كتاب سيبويه تحت مفهوم التّوسع، حين خرجت هذه الظواهر عن المعيار النحوي الصارم فصارت مكوّنا من المكونات البلاغية وعلمها من علومها وهو علم المعاني، يقول محمد العمري: ((قد يبدو غريبا أن تتولّد البلاغة، أو مكوّن من مكوناتها، في مهد النحو وهو نقيضها، أي المعيار الذي تنزاح عنه. ولكن الذي وقع تاريخيا هو أنّ الظواهر البلاغية وقفت، في وقت مبكر، في وجه الصرامة العلمية التي نُعت بها القياس النحوي واطراد القواعد))³.

أمّا علاقة البلاغة بالنّص القرآني فقد تجلّت بداية في شكل مكوّن من مكوّنات الإعجاز ثم أضحت بعد زمن المكوّن الأساس والأصيل لمباحث الإعجاز كلّها، فانصرف ثلّة من علماء العربية إلى البحث في الإعجاز البلاغي في القرآن، كالرّماني والباقلاني والقاضي عبد الجبار وعبد القاهر الجرجاني، وإن اختلفت مذاهبهم ومناهجهم في إبراز أسرار الإعجاز إلا أنّهم يقرّون بأهمية الجانب اللغوي على مظاهر الإعجاز الأخرى؛ فنجد عبد القاهر يخصص للإعجاز البلاغي مؤلفا ضخما " دلائل الإعجاز" ولوجوه الإعجاز الأخرى " الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز".

كما دخلت البلاغة العربية ساحة الصراع الفكري حين توسل بها المتكلمون والإعجازيون للرد على الطعون التي لاحقت النص القرآني، وتجلت ملامح هذا التوجه في كتاب " تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، وكتاب " تنزيه القرآن عن المطاعن لصاحبه قاضي عبد الجبار.

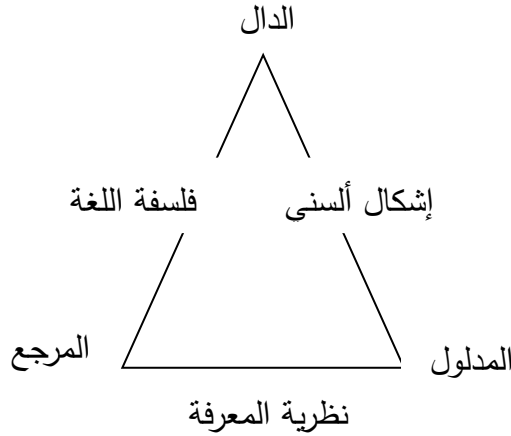
في مرحلة من مراحل تطوّر البلاغة العربية تسلّلت إليها بعض المفاهيم البلاغة اليونانية أثناء محاولة قراءة الفكر اللغوي الأرسطي، وتجلّت في البحث عن القوانين والكليات وتطعيمها بأمثلة عربية، وظهر مفهوم المحاكاة عند ثلة من الفلاسفة كالفارابي وابن سينا وابن رشد.

يمكن الجزم بما تمّ رصده من تحولات التي شهدتها البلاغة العربية، أنّها سعت إلى الإحاطة بمختلف العلوم العربية والشرعية واستيعابها، يقول محمد العمري عن مسار البلاغة العربية: ((إنّ البلاغة في سعيها لابتلاع كل شيء تجده أمامها، قد ابتلعت أشياء كثيرة عسيرة الهضم. وهذا ما وقع لجميع الأمبراطوريات في التاريخ القديم والحديث))⁴

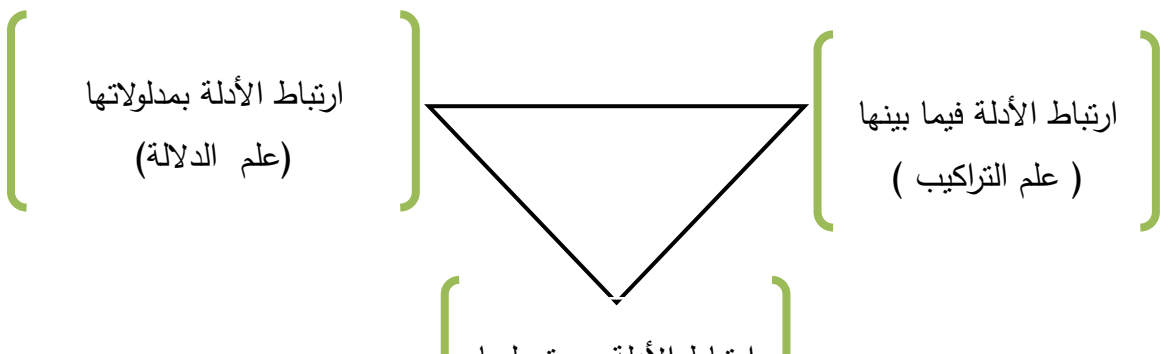
اللسانيات الغربية والعربية:

أحدث كتاب دي سوسير " دروس في الألسنية العامة " انعطافا معرفيا بارزا رسم به صاحبه ملامح جديدة في تناول الظاهرة اللغوية، بدأ بتحديد المنهج العلمي في دراسة اللسان البشري بعدما سيطر المنهج التاريخي على الدراسات اللغوية، كما استطاع صياغة منظومة مصطلحية حدّدت فيما بعد ملامح البحث اللساني العالمي؛ مثل التفريق بين اللغة واللسان والكلام، العلامة، الدال والمدول، الدياكروني والسانكروني، فأضحت هذه المفاهيم أصولا في البحث اللساني وموقف هؤلاء اللسانيون منها هو الذي حدّد التيارات اللسانية التي ظهرت بعد ذلك؛ يقول: محمد محمد يونس علي: ((تتحكّم الأصول الأنطولوجيا والإبستمولوجية إلى حدّ كبير في تشكيل الاتجاهات اللسانية، وكثيرا ما يعود الاختلاف المنهجي بين اللسانيين إلى موقفهم من هذه الأصول))⁵ كما أفرزت طبيعة العلاقة بين هذه الأصول نظاما منهجيا ومعرفيا مختلفا في تناول الظاهرة اللغوية؛ مثل الاهتمام بالعلاقة القائمة بين الدال والمدول أو العلاقة القائمة بين الدال والمرجع أو العلاقة بين المدلول والمرجع. يقول عبد السلام المسدي في ضوء هذه المعادلة: ((إذا كان تفاعل الدال مع المدلول يفضي إلى إشكال ألسني عام فإنّ تفاعل الدال مع المرجع أي

الحدث الألسني الصرف مع الأشياء الخارجية يفضي إلى فلسفة اللغة وأما تفاعل المدلول - أي المتصورات الذهنية المجردة مع حقائق الأشياء - فإنه يفضي رأساً إلى نظرية المعرفة ((⁶.



بالإضافة إلى هذا التيار برز تيار فلاسفة اللغة الذي استثمر فكر أوجدن وريتشارد وبيرس وموريس، حتى غدا البحث في الظاهرة اللغوية بحثاً في المنطق والفلسفة فظهر الاهتمام بعلم التخاطب يقول الحاج صالح: ((وظهر الاهتمام بظواهر التخاطب كموضوع علمي - أول ما ظهر - لا عند اللسانيين بل عند بعض فلاسفة اللغة الأمريكيين ومنهم مؤسس لعلم السيميائية (Semiotics) وموضوعه الدراسة العلمية للأدلة (أي كان نوعها) وهو شارل سنديرس بيرس (Charles Sanders Peirce)).⁷ وأفرزت هذه الجهود ثلاثية معرفية هي:



أمّا فيما يخصّ اللسانيات في الوطن العربي، فقد عرفت تذبذباً وتأخراً قبل أن يستتب لها المقام في البحث اللساني العربي الحديث، نظراً لبعض العوائق الحضارية والنفسية والمنهجية التي اعترضت انتشارها وتمكّنها في العلوم اللغوية خاصة والإنسانية عامة. ويمكن لأيّ رصد معرفي لواقع اللسانيات في البحث اللغوي العربي الحديث أن يدرك أن اللسانيات العربية اختصرت أبعادها المعرفية في بعدين أساسيين أولهما تلقي اللسانيات الغربية بكل حمولتها الأنطولوجية والإبستمولوجية، وثانيهما إعادة قراءة التراث اللغوي العربي بكل تجاذباته الفكرية والمنهجية. فذهب فريق من الباحثين استثمار النظرية اللسانية الغربية وتطبيق إجراءاتها على اللسان العربي، يقول الدكتور مصطفى غلفان: ((فإننا لا نرى ما يمنع من تطبيقها على اللسان العربي أو أيّ لسان آخر خارج نطاق الألسن الأوروبية المعروفة مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية)).⁸

المكوّن البلاغي في البحث اللساني:

تبيّن مما تمّ رصده سلفاً أنّ البحث اللساني الغربي استثمر في مساره التطوّري آراء كل أوجدن وريتشار وبيرس السيميائية فأفرز تياراً لغوياً يهتم بفلسفة اللغة من جهة؛ وتياراً لسانياً آخر اتخذ من فكر سوسير اللغوي مكنأً سواء بالنقد أو التطوير. بالإضافة إلى أنّ كلا من التيارين قد استثمر الجهود اللغوية عند اليونان والإغريق، يقول محمد العمري في هذا السياق: ((ولذلك بدأ المحققون المدققون من الباحثين في مجال التداول الحجاجي (منطق الحجاج) ونظرية الأدب و"علم النصّ" يكتشفون أنّ ما يبحثون عنه، في تناولهم لشتّى أنواع الخطابات الاحتمالية المؤثّرة، موجود في علم عتيق أصابه الإهمال حتى تلاشت معالمه، هذا العلم هو البلاغة.)).⁹

وإذا كان الإعلان عن ميلاد لسانيات سوسير هو في ذات الوقت إعلان عن قطيعة منهجية رفع لواءها الألسنيون مع ما قبل اللسانيات العامة، فإنّ الغوص في أعماق البحث اللغوي من حيث علاقة الدوال بمدلولاتها أو الدوال فيما بينها أو علاقتها بمستعملها جعل البحث اللساني في عمومهِ يطرح إشكالات قد أثّرت قديما وبصيغ مختلفة. فأضحى الركون إليها وإعادة بعثها توجهها لسانيا متميّزا يبعث الحياة في شرايين البلاغة من جهة والبحث اللساني من جهة ثانية، يقول محمد العمري في هذا السياق: ((وقد برهنت هذه العودة النشيطة للبلاغة على أنّها تجيب عن أسئلة لا يمكن للمداخل العلمية الأخرى أن تجيب عنها. إنّ البلاغة لا يمكن أن تغيّر جلدّها، ولكنّها لا تختفي إلا لتظهر في لباس جديد.))¹⁰.

أمّا بالنسبة للسانيات العربية فقد حاول بعض أعلامها استثمار جهود العرب في البحث بكل مستوياته الصوتية والمعجمية والتركيبية والدلالية والبلاغية إنّ على المستوى التنظير أو الإجراء. يقول محمد العمري: ((فمن خلال الاطلاع على الجهود الحديثة التي بذلت، منذ منتصف القرن الماضي، من قبل المشتغلين باللغة والخطاب من اللسانيين (ياكوبصون مثلا) والمناطقّة (بيرلمان مثلا) بدأنا ننتبه للمكوّن المهمل من تراثنا البلاغي، ذلك المكوّن الذي غطاه الصدا واختلط تبره بترابه. وعلى هذا الأساس أعدنا الاعتبار للبعد الحجاجي الإقناعي والمعرفي العام للبلاغة العربية.))¹¹.

أمّا البحث في المكوّن البلاغي - البلاغة العربية - في البحث اللساني العربي فإنّه يتحقّق علينا منهجيا ومعرفيا النظر إلى البلاغة العربية ككل متكامل بكل أبعادها بداية بالملاحظات الأولى في طبيعة الصورة ثم البديعيات والبلاغة الإعجازية ومنهج المفسرين في تفسير القرآن بلاغيا، وتأثير الاتجاه الفلسفي في البلاغة ثم جهود علماء الكلام في التوسل بالبلاغة للدفاع عن مذهبهم وأخيرا تقنين البلاغة العربية على يد السكاكي.

البلاغة والأسلوبية:

يدين الاتجاه الأسلوبي في ظهوره إلى جهود مدرسة جنيف "شارل بالي وألبرت سيشهاي" التي انصرفت إلى شرح آراء أستاذها سوسير ونشرها، إذ قام الاتجاه على استثمار فكر سوسير فإنّه بالتوازي استحضّر الإجراءات البلاغية القديمة.

وبعد زمن غير كثير من بروزها (مدرسة جنيف) بدأت تظهر بوادر استقلاليتها عن التبعية المعرفية والمنهجية لفكر أستاذها. فرسم "بالي" ملامح القطيعة باتخاذ الكلام من ثنائية سوسير موضوعا للبحث الأسلوبي دون اللسان، يقول مصطفى غلفان: ((ولم يتردّد بالي في إبراز الجوانب التي اختلف فيها مع سوسير نتيجة تمييزه الصارم بين اللسان والكلام. واعتبر بالي أنّ سوسير أهمل العناصر الانفعالية والعاطفية المتغلغلة في الظاهرة اللغوية))¹² وقد أدى الاهتمام بلغة الفرد عند "بالي" والمكوّن الانفعالي في العملية التلفظية إلى ظهور الأسلوبية التعبيرية. والتي تهتم برصد الإنجاز اللغوي والتعبير الانفعالي عند الفرد المتكلّم. هذا من جهة الموضوع أمّا من حيث الإجراء في أسلوبية "بالي" فقد استحضر بعض المفاهيم البلاغية اليونانية في تحليله للجملة وهما مفهوم المقولة والجهة؛ يقول الدكتور مصطفى غلفان: ((ومن الأفكار الجديدة التي تعدّ بمثابة استثمار لبعض المفاهيم البلاغية والمنطقية الموروثة عن التقاليد الفلسفية اليونانية تحليل بالي الجملة إلى مكوّنين أساسيين هما: المَقُول Dictum الجهة ((Modus))¹³

فالمقولة في عرف الفلسفة هي المحتوى القضوي للمنطوق أمّا الجهة فترتبط بالجانب النفسي للمتكلّم وموقفه من القضية المعبر عنها أو الفكرة التي يريد إيصالها.

فقد امتد التطوّر السريع الذي شهده البحث اللساني الغربي إلى المنهج الأسلوبي فظهرت تيارات مختلفة ومتعدّدة يقول عبد السلام المسدي: ((وإذا فحص الباحث ما تراكم من تراث التفكير الأسلوبي وشقّه بمقطع عمودي يخرق طبقاته الزمنية اكتشف أنّه يقوم على ركح ثلاثي دعائمه هي المخاطب والمخاطب والخطاب، وليس من نظرية في تحديد الأسلوب إلا اعتمدت أصوليا إحدى هذه الركائز الثلاث أو ثلاثتها متعاضدة متفاعلة))¹⁴، تحليل هذه المقولة في جوهرها إلى الاتجاهات التي عرفتها الأسلوبية في مسارها التطوّري، وتستبين من خلال الشكل التالي¹⁵

الاتجاهات الأسلوبية في ضوء نموذج

التواصل



الاتجاه

التعبيري

(المرسل)

الاتجاه

التأثيري

(المتلقي)

الاتجاه المحاكاتي

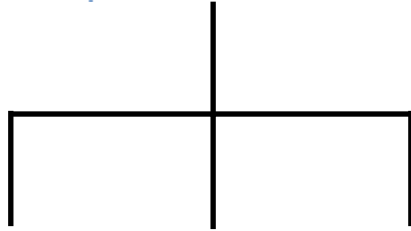
(علاقة النصّ

بالموضوع)

الاتجاه التأليفي

(بنية النصّ

اللغوية)



أسلوبية

السياق

أسلوبية

الانزياح

الأسلوبية

الإحصائية

وإذا ما رمنا البحث عن ملامح اهتمام بالمرسل أو المتلقي في المنجز البلاغي العربي نجد أنفسنا أمام شبكة معقدة من الظواهر ترتبط أساسا بعملية إرادة المتكلم وغرضه من العملية التفظية منذ أبو عبيدة في مجازة إلى السكاكي في مفتاحه، ومدار الحديث حول قدرة المتكلم على إيصال المعنى وبراعة المتلقي في فك رموز المعنى ومعنى المعنى. حتى وجدنا ملامح عناصر التواصل في تعريف الرماني للبلاغة حيث يقول: ((وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم

المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيي؛ ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى. لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف. وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة في اللفظ))¹⁶

فإيصال المعنى يتطلب من المرسل قدرة لا على الإفهام فحسب وتحقيق اللفظ على المعنى بل إيصالها إلى قلب السامع، وهو محط الإقناع والتأثير متوسلاً بإمكانات اللغة المتعددة وهي عنده أحسن صورة للفظ. كما تحيل صحيفة بشر بن المعتمر ضمناً إلى الاتجاهات التي عرفتھا الأسلوبية يقول: ((وينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات))¹⁷

وإذا حاولنا أن نمذّ الجسور بين التراكم المعرفي في البحث الأسلوبي الحديث بكل اتجاهاته وإجراءاته بالمنجز التراثي العربي نلفي كتاب دلائل الإعجاز أنموذجاً تراثياً أولى صاحبه الظاهرة الأسلوبية أهمية كبرى من حيث التنظير والإجراء. وقد تقرّر عند ثلثة من الباحثين العرب أنّ عبد القاهر أدرك ضمناً الحدود الفاصلة بين الظاهرة اللغوية والظاهرة الكلامية ممّا جعل كتاب " دلائل الإعجاز " مدوّنة أسلوبية بامتياز، يقول محمد كريم الكوّاز في كتابه " علم الأسلوب مفاهيم وتطبيقات ": ((أن عبد القاهر كان على وعي تام بالفارق بين (اللغة) و(الكلام)، ذلك الفارق الذي أرسى دعائمه العالم السويسري دي سوسير، فقوانين النحو ومعاني الألفاظ تمثل عند عبد القاهر (النظام) اللغوي القار في وعي الجماعة، الذي تقوم اللغة على أساسه بالوظيفة الاتصالية؛ أمّا الكلام فهو التحقق الفعلي لهذه القوانين في حدث كلامي معيّن))¹⁸

أمّا فيما يتعلّق بالاتجاه التألّيفي أي من حيث سياق النص وظاهرة الانزياح والإحصاء، فإن التفكير اللساني عند العرب انطلق في أساسه من النّص أولاً - النص القرآني والشعري - ومن ظاهرة انزياحية ثانياً - الدافع في تأليف كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة بن المثنى - كما تجلّى الجانب الإحصائي في الجهود التي قام بها علماء العربية في حصر الأساليب والصيغ التي أنشئت البحث النحوي والمعجمي، يقول الحاج صالح عبد الرحمن: ((وقد أحصى العلماء كل

الخصائص اللغوية في استعمال العرب لها من خلال ما سمعوه كجميع الأوزان وجميع أنواع التراكيب وغير ذلك. وهذا دليل واضح على تمسك العلماء القدامى بالتصفح الكيفي والكمي الواسع للمسموع.....وعلى هذا فكل سماع أيًا كان يلزمه تحليل إحصائي.)¹⁹

إذا حاولنا أن نبحث في علاقة الأسلوبية بالبلاغة القديمة نجدها - حسب النصوص - تميّزت بتوتر معرفي تميل مرّة إلى التوحد حتى نطنهما علما واحدا ومرّة أخرى إلى التفرق وكأننا بين نسقين معرفيين متنافرين، يقول هنريش بليث عن علاقة البلاغة بالأسلوبية: ((تقيم البلاغة والأسلوبية، منذ زمن، علاقات وطيدة: تتقلّص الأسلوبية أحيانا حتى لا تعدو أن تكون جزءا من نموذج التواصل البلاغي، وتنفصل أحيانا عن هذا النموذج وتتسع حتى لتكاد تمثل البلاغة كلّها باعتبارها " بلاغة مختزلة "))²⁰

يمكن القول في إطار بحثنا هذا أنّ البلاغة العربية بكل اتجاهاتها المختلفة تعتبر المكون الأساس في التيار الأسلوبي الحديث (العربي)، وقد استقرت عند بعضهم المعادلة التالية: الأسلوبية = بلاغة + تواصل، فللبلاغة حق الذكر من ميراث البحث الأسلوبي الغربي أو العربي على السواء.

البلاغة ولسانيات النص:

بدأ الاهتمام بالنص في الربع الثالث من القرن العشرين باعتباره أصغر وحدة يمكن رصدها وتحليلها، بعدما انصرف علم الدلالة لدراسة الجملة. وقد ظهرت تعريفات متعدّدة ومختلفة للنص بتعدد الاتجاهات اللسانية، كما اتجهت لسانيات النص إلى البحث في علوم اللغة الموازية لتكشف عن أرصدها المودعة في أنساقها، فظهر البحث في نحو النص وبلاغة الخطاب، يقول فان ديك عن علاقة علم النص بالبلاغة: ((فإنّ علم النص يدرس الأقوال اللغوية في كليّتها، كما يدرس الأشكال والبنى الخاصة بها تلك التي لا يمكن وصفها بواسطة النحو، من هذه الزاوية يقترب علم النص من البلاغة بل اعتباره ممثلا معاصرا (عصريا) لها))

إذا تقرر من خلال هذا النص ومن نصوص أخرى أن البلاغة مكوّن أساس من مكوّنات النص، يمكن طرح جملة من الإشكالات تتعلّق بكيف حضور البلاغة في بناء النص من الوجهة اللسانية الحديثة؟. وماذا أضافت البلاغة القديمة للبحث اللساني الحديث؟

ونحن نتحسّس المدونات والنصوص الغربية المترجمة نجد الطرح التي قدّمه كل من هاليدي ورقية حسن لتماسك النص لا يبتعد كثيرا عن الظواهر البلاغية التي تناولها علماء العرب في مدوناتهم، يقول محمد محمد يونس علي: ((ويتحقّق التماسك في اللغة - كما يذكر هاليداي ورقية حسن - بخمس وسائل، هي: الإحالة reference والإبدال substitution، والحذف ellipsis، والربط conjunction والتماسك المعجمي lexical cohesion))²¹.

استطاعت لسانيات النص صياغة مقاييس علمية تتحكّم في تماسك النص وهي الإحالة والإبدال والحذف والربط والتماسك المعجمي، ونلّف في تراثنا البلاغي عبد القاهر الجرجاني يصيغ نظرية متكاملة تهتم بتماسك النص وهي نظرية النظم، يقول محمد محمد يونس علي: ((وقد أدرك عبد القاهر الجرجاني سمة التماسك في النص، فصاغ نظرية متكاملة سمّاها "النظم" أكّد فيها أهميّة تعلّق أجزاء بعضه ببعض مشبّها واضع الكلام بمن يأخذ قطعا من الذهب أو الفضة، فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة.))²²

فالإحالة في المنظور اللساني الخالص هي العلاقة الدلالية التي يقيّمها عنصر لغوي مع غيره من العناصر السابقة أو اللاحقة قصد التماسك، وقد قسّم الباحثان الإحالة إلى قسمين: ((تنقسم الإحالة إلى نوعين رئيسيين: الإحالة المقامية والإحالة النصية وتتفرّع الثانية إلى إحالة قبلية وإحالة بعدية))²³. فالإحالة المقامية هي التي ترتبط بالعالم الخارجي والإحالة النصية أو الداخلية فهي تختص بارتباط عنصر لغوي بآخر في النص، ويقسم محمد محمد يونس علي الإحالة إلى: الإحالة الشخصية، ممثلة في الضمائر، والإحالة الإشارية، ممثلة في أسماء الإشارة، والإحالة بأداة التعريف "ال"، والإحالة بالمقارنة أي الموازنة²⁴. وقد عرفت البلاغة العربية الإحالة بمفهومها الحديثة وأدركت في ذات الوقت وظيفتها في تماسك النص وبخاصة عند مفسري القرآن الكريم إذ اعتبروه كتلة دلالية واحدة متماسكة بآليات من داخل النص ومن خارجه.

أما الإبدال أو الاستبدال فإنّه عملية تتم داخل النّص بتعويض عنصر لغوي بآخر من أجل الترابط والتماسك، ويتجلى في اللسان العربي في التكرار سواء لفظي وبتعبير اللسانيات النّصية "إعادة العنصر المعجمي نفسه"، أو التكرار المعنوي "الترادف" والاسم الشامل؛ ((وهو عبارة عن اسم يحمل أساسا مشتركا بين عدّة أسماء ومن ثم يكون شاملا لها وذلك مثل أسماء النّاس، الشخص، الرجل)).²⁵

وقد أشار الدكتور جميل عبد المجيد في كتابه " البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النّصية" إلى المفارقة المنهجية بين معالجة البلاغة العربية لهذه القضايا وبين معالجتها في ضوء اللسانيات النصية. يقول: ((وبداية نشير إلى ثمة مفارقات بين البلاغيين العرب وعلماء لغة النّص في معالجة ظاهرة " التكرار" نجعلها فيما يلي:

1. المعالجة العربية معالجة بلاغية وإعجازية صرفة وعند علماء لغة النّص معالجة لسانية خالصة.

2. ركّزت المعالجة العربية على التقعيد ولم تتجاوز الشاهد (آية أو بيت شعري)، أما المعالجة اللسانية فتجاوزت الجملة إلى الفقرة والنّص.

3. اختلف علماء البلاغة مع علماء لغة النّص في درجة التكرار)).²⁶

أما الوسيلة الثالثة التي أشار إليها الباحثان فهي الحذف الذي يشبه إلى حدّ ما الاستبدال إلّا أن الاستبدال يبقى أثرا يمكن من خلاله أن نسترشد إلى العلاقة بين المبدل والمبدل منه، أما الاستبدال في الحذف - بتعبير علماء لغة النّص استبدال بالصف، يقول الدكتور جميل عبد المجيد: ((بينما الأمر على خلاف هذا في الحذف، إذ لا يحل محل المحذوف أي شيء، ومن ثم نجد في الجملة الثانية فراغا بنيويا يهتدي القارئ إلى ملئه اعتمادا على ما ورد في الجملة الأولى أو النّص السابق، بتعبير الباحثين)).²⁷

فالحذف من هذا المنطلق خاصية بلاغية لقيت اهتماما واسعا من النحويين والبلاغيين العرب، وقد عالجها عبد القاهر الجرجاني في ضوء نظرية النظم، يقول في وصفه: ((هو باب

دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للفائدة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين²⁸

استحضرت اللسانيات الحديثة الآليات البلاغية القديمة وجعلتها مكونا أساسيا من مباحثها المختلفة وأعادت صياغتها في ثوب جديد. بعدما اكتشفت عمق الظاهرة اللسانية إذ لا يمكن بحال من الأحوال تجاوز الجهود القديمة وفي مختلف الحضارات في تناول الظاهرة اللغوية. بالإضافة إلى ذلك يمكن التسجيل معرفيا أنّ البلاغة القديمة تجلت كذلك في نظرية الأفعال الكلامية لـ"أوستن" ولكن في هذا النسق المعرفي لم نر البلاغة مكونا من مكونات هذه النظرية بل هي البلاغة كلها بمنهج مختلف.

قائمة المصادر والمراجع

1. الجاحظ، البيان والتبيين، تح: موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، لبنان.
2. جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
3. الحاج صالح عبد الرحمن، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
4. السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، 2007، الجزائر.
5. الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسال في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف.
6. عبد السلام المسدي، الأدب وخطاب النقد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط:1، 2004.
7. الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط:3.
8. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، ط:3، 1413هـ-1992م.

9. محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط:1، 1991، المركز الثقافي العربي.
10. محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات، إفريقيا الشرق، 2013.
11. محمد كريم الكوّاز، علم الأسلوب، مفاهيم وتطبيقات، منشورات جامعة السابع من أبريل.
12. محمد يونس علي، قضايا في اللغة وتحليل الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة.
13. مصطفى غلفان، اللسانيات البنيوية منهجيات واتجاهات، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط:1، 2013.
14. اللسانيات العربية - أسئلة المنهج - دار ورد الأردنية، ط:1، 2013.
15. هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، تر: محمد العمري، منشورات دراسات.سال.

الدوريات والمجلات

16. محمد محمد يونس علي، أصول اتجاهات المدارس اللسانية، عالم الفكر، العدد:1، المجلد: 32 يونيو سبتمبر، 2003،
17. عبد السلام المسدي، الفكر العربي والألسنية، مجلة أقلام، العدد:4، أبريل 1979.العراق.

الإحالات:

-
- (1) عبد السلام المسدي، الأدب وخطاب النقد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط:1، 2004، ص:80.
 - (2) محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات، إفريقيا الشرق، 2013، ص:111
 - (3) محمد العمري، نفسه، ص: 113.
 - (4) محمد العمري، المرجع السابق، ص:116.
 - (5) محمد محمد يونس علي، أصول اتجاهات المدارس اللسانية، عالم الفكر، العدد:1، المجلد: 32 يونيو سبتمبر، 2003، ص:127.

- (6) عبد السلام المسدي، الفكر العربي والألسنية، مجلة أقلام، العدد:4، أبريل 1979.العراق.، ص: 9.
- (7) عبد الرحمن الحاج صالح ، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2012، ص:201.
- (8) مصطفى غلفان، اللسانيات العربية - أسئلة المنهج - دار ورد الأردنية، ط:1، 2013، ص: 298
- (9) محمد العمري، المصدر السابق، ص:16.
- (10) محمد العمري، نفسه، ص:17.
- (11) محمد العمري، نفسه، ص: 5
- (12) مصطفى غلفان، اللسانيات البنيوية منهجيات واتجاهات، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط:1، 2013. ص: 191.
- (13) مصطفى غلفان، نفسه، ص: 202.
- (14) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب؛ الدار العربية للكتاب، ط:3، ص: 61.
- (15) ينظر، هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، تر: محمد العمري، منشورات دراسات.سال.
- (16) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ضمن ثلاث رسال في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط:5، ص:75-76
- (17) الجاحظ، البيان والتبيين، تح: موفق شهاب الدين، مج:1، ج:1، دار الكتب العلمية، لبنان، ص:100.
- (18) محمد كريم الكواز ، علم الأسلوب، مفاهيم وتطبيقات، منشورات جامعة السابع من أبريل، ص:25
- (19) عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، 2007، الجزائر، ص:373
- (20) هنريش بليث، المصدر السابق، ص: 13
- (21) محمد محمد يونس علي، قضايا في اللغة وتحليل الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص:53
- (22) محمد محمد يونس علي، المرجع السابق، ص:55
- (23) محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط:1، 1991، المركز الثقافي العربي، ص:17
- (24) ينظر، محمد محمد يونس علي، نفسه، ص: 61.
- (25) جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص: 83.
- (26) جميل عبد المجيد، المرجع السابق، ص: 85.
- (27) جميل عبد المجيد، نفسه، ص: 21.

(28) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، ط:3، 1413هـ-
1992م، ص:146